العرب
الخميس 2019/12/26
السنة 42 العدد 11568

انتفاضة أكتوبر تعيد الحياة إلى الأغنية العراقية

الأغنيات الجديدة أداة ثقافية وفنية تقاوم السلطة الجائرة

رافق الحراك الشعبي في العراق مظاهر حضارية خلاّقة، حيث تخللت المظاهرات والاعتصامات المفتوحة المنددة بالفساد السياسي مظاهر ثقافية وفنية متنوعة، في إثبات حي لريادة الفن والثقافة في رغبة التحرر عند الشعوب. أشكال فنية عديدة من رسم ومسرح وموسيقىٰ وأدب ورسم وغيرها لا تزال إلىٰ الآن في ناصية الحراك.

الموسيقى صوت الحرية (لوحة للفنان تحسين الزيدي)

وارد بدر السالم
كاتب عراقي

النكسة التي أصابت الأغنية العراقية بعد 2003 كانت بليغة جدا. حتىٰ يمكن القول إن السلطة وممنوعاتها الكثيرة بمحاربتها للفن والجمال والإبداع، هي أحد الأسباب السالبة التي قتلت روح الأغنية وأشاعت جوا سيئا حولها، حينما تحولت الحالة الفنية إلىٰ مراث وحسينيات دينية وصخب شعري هجين، أتاحت المجال للمتطفلين والطفيليين أن يتسيدوا المشهد الغنائي لكن بطريقتهم التي حاولوا معها غسل أدمغة الشباب، وتصوير الحياة علىٰ أنها بكائيات ولطم علىٰ الصدور وشق الأزياء في بدع لم يشهد العراق لها مثيلا علىٰ مر تاريخه السياسي والفني والاجتماعي.

> الشباب المنتفضون أعادوا الروح للأغنية العراقية الميتة منذ ستة عشر عاما بطريقة راقية وبارعة نالت متابعة هامة

وهذا من صريح الحالة التي عشناها طوال ستة عشر عاما. حيث أصبح الغناء في سراديب كهنة السياسة ومعممي الفتنة الطائفية.

عودة الفن

في ظرف أقل من شهرين تمكّن شباب أكتوبر من أن يعيدوا الكثير من الجمال إلىٰ الحياة العراقية في مجالات ثقافية متعددة؛ كفنّ الشارع الذي زينوا به نفق الساحات والأرصفة، والقصائد ذات الطبيعة الحماسية التي تُلقىٰ علىٰ الجماهير بمكبرات الصوت. والمكتبات المجانية التي تدعو إلىٰ المعرفة. ومسرح الفرجة الذي يستقطب المتظاهرين وهو ينتقد فساد السلطة المعمّمة. وأخيرا أعادوا الروح للأغنية العراقية الميتة منذ ستة عشر عاما بطريقة راقية وبارعة، تمكنت من أن تستحوذ علىٰ نسبة مشاهدَة عالية، وباتت تتردد علىٰ ألسنة الناس في كل مكان، مشيرة إلىٰ عصر فني جديد أنتجته ساحة التحرير بأصوات شبابية ألهبت الحماسة الوطنية وشاعت بشكل سريع في أروقة المجتمع العراقي، وأصبحت أغنيات أكتوبر ذائعة الصيت وهي تستقدم بطولات الشباب العراقي في المطاولة والصبر والتحدي وهو يواجه أعتىٰ سلطة فساد مرت بتاريخ البلاد.

مناخ ساحة التحرير كمكان. والمناخ العام في المجتمع هيّأ الكثير من الانفتاح النفسي للطاقات الشبابية أن تعبّر عن خلجاتها وفرحها بطريقة سليمة. بلا رقابة سلطة لا تحترم الفن وتعدّه من الكبائر. وبالتالي إنّ شيوع الأغنيات الوطنية والرومانسية هو رد مناسب لشرخ هذه القطيعة القسرية التي تسببت بها السياسة الدينية بوجهها الطائفي الذي تسبب بكل هذا الحِراك الشعبي.

وعلىٰ هذا التوقيت امتلأت ساحة التحرير وساحات العراق وجسورها الكثيرة بفيض غنائي شبابي وأسماء جديدة من الملحنين والمطربين وهي تشد من عزم الثائرين وتنتصر للغد الذي يرتجله شباب وفتيان بغداد والمحافظات الجنوبية علىٰ وجه التحديد بطريقة أربكت السلطة والفاسدين معها. مما يعني أن الأغنيات الجديدة هي أحد الأسلحة الجاهزة التي طالت وتطاولت علىٰ سلطة العمامة المغلقة، لتفتح المجال الكبير لحرية التعبير وانتقاد المسؤولين وتشيد بمناقب انتفاضة الثورة.

ومع هذا الطيف الرومانسي المتسارع، يمكن أن نشير إلىٰ علامات هذا الفن الغنائي الجديد الذي ولد في ساحة التحرير وفق معطيات يمكن اختصارها بالمدّ الجماهيري العارم الذي أعطىٰ زخما مضاعفا للانتفاضة منذ أيامها الأولىٰ وحتىٰ الآن. وهذا المدّ كان يترنم بالأغنيات الحماسية القديمة والشعر الشعبي المغنّىٰ والهوسات العشائرية ذات الطابع الوطني التحريضي، بشكل أذكىٰ القرائح ووطّد صلته الروحية بمجريات الانتفاضة وشبابها. مما جعل من المَلَكات الشعرية والغنائية أن تتفتح في هذا السياق الاعتباري وتنضم إلىٰ الصوت الشعبي، مجسّدة الخطوط العامة والخاصة لهذا الفعل الثوري المستمر. وكانت الأغنية مفتاحا لبث الحماسة في صفوف الجماهير.

أيقونات بارزة

منذ انتكاسة الأغنية العراقية بعد 2003 وضياع المواهب بالهجرة أو الاعتكاف أو اليأس من إصلاح الحال، كان الفراغ الفني في الغناء واضحا، فشاعت أغنيات الابتذال الرخيصة ذات المفردات السطحية والتوجهات الرومانسية الساذجة لطارئين علىٰ الأغنية، تلك التي تحاكي المرأة بأسلوب فج يخلو من اللياقة الاجتماعية والأدبية، وعبر ستة عشر عاما من هذا الخواء الغنائي تم إغلاق هذا الملف شعبيا وفنيا؛ غير أن الانتفاضة الأكتوبرية أعادت صورته بشكل راق جديد. فيه من الألفة الاجتماعية والوطنية العالية ما جعلت الحالة الشعبية تنتعش من جديد.

وتعود العفوية الراقصة بشكل جميل مع النبرة الوطنية التي صدحت في حناجر المنشدين والهواة الشباب، عندما خرقوا الممنوع السياسي بجلبابه الديني، ومن ثم التخلص من إرث فني سابق فيه من الميوعة ما جعله إرثا غير مقبول في الشارع الاجتماعي، وانتقاء مفردات وطنية لها فعل الشد وشحذ الهمم وفتح مسالك التجديد بطريقة بارعة، لتكون هذه الأغنيات وبالأسماء الجديدة أحد المعطيات الثقافية التي نفخر بأنها وُلدت من رحم الانتفاضة وانتمت إليها.

يمكن تشخيص معطيات أخرى في هذه الأغنيات الجديدة أهمها التغني بالمنجزات المتحققة التي واظب الشباب علىٰ استحصالها بالصمود الأسطوري حتىٰ اليوم بالرغم من آلة القمع الوحشية التي مارستها السلطة. وبالتالي التغني ببغداد كونها مركز ثقل العراق الانتفاضي بحيوية معتصميها ومتظاهريها، ويقينا أن الأمجاد البطولية القديمة بتاريخيتها المعروفة تطل بين بعض الأغنيات لتذكير الجماهير بفرشة عريضة من المقاومة والاستبسال التي كانت عليها البلاد. وهي إشارات موضعية، لكنها صريحة في دفع الموقف الشعبي الرافض للفساد السياسي إلىٰ أقصىٰ مدى من الصبر وانتظار التغييرات التي تشير الوقائع إلىٰ حتمية حدوثها.

ثلاثة معطيات أخرى تناولتها الأغنية العراقية الجديدة كأيقونات بارزة في هذا الحِراك المتشعب بين المحافظات الجنوبية، وهي ساحة التحرير بوصفها المكان المركزي للتظاهرات، لما حملته من مضامين رمزية غير خافية علىٰ أحد، لاسيما وأن "نصب الحرية" ينتصفها، بما يشكله من علامة فنية تنتصر للحرية وتدافع عنها. ثم المطعم التركي الذي صار قلعة صامدة حتىٰ اليوم.

ومن ثم لم تغب عن هذا الفيض الغنائي موضوعة (التُك تُك) ذي العجلات الصغيرة الذي كان له ولا يزال دور استثنائي في إمساك الجسور والتعبئة العامة في التظاهرات، والذي كُتبت وغُنّيت له الكثير من الأغنيات الحماسية، المُشيدة بدوره البطولي وبشبابه الصغار الذين قدموا تضحيات غير قليلة لتستمر الانتفاضة. حتىٰ أصبح رمزا أدبيا وثقافيا نتوقع أن تتناوله أعمال سردية في الوقت التالي لهذا الحراك المتواصل.

شعراء وكتّاب يقدمون شهادات عن الشاعر أمجد ناصر في حفل تأبين بعمّان

عواد علي
كاتب عراقي

أقامت وزارة الثقافة الأردنية، مؤخرا، حفل تأبين للشاعر والروائي الراحل أمجد ناصر في المركز الثقافي الملكي بعمّان، رعاه وزير الثقافة الدكتور باسم الطويسي، وشارك فيه الشاعر نوري الجراح، والناقد فخري صالح، ومدير مركز القدس للدراسات الكاتب عريب الرنتاوي، والشاعر زهير أبوشايب، والشاعرة زليخة أبوريشة، ورئيس رابطة الكتّاب الأردنيين الشاعر سعدالدين شاهين. وحضر حفل التأبين جمع غفير من الأدباء والكتّاب، وذوو الراحل وأصدقاؤه ومحبّوه.

وقال راعي الحفل وزير الثقافة الدكتور باسم الطويسي في كلمته "نجتمع في هذا الحفل الرمزي لنستذكر ونكرّم قامة أردنية عالية؛ أبدع في الثقافة والأدب والصحافة والحياة أيضا، فقد رحل أمجد ناصر علىٰ عجل، رحل مثل غيره من المبدعين الكبار الذين توقفوا عن النبض في منتصف الدرب، وآثروا أن يتركوا إبداعهم وما سطروه من بوح وفرح، وشجن واغتراب في كل مكان حولنا، نقف اليوم استذكارا لأمجد ناصر (يحيىٰ النميري النعيمات)، هذا الشاعر الذي غادر الوطن الأردني أول مرة مبكرا فكانت مواعيده مع الغربة والرحيل والمحطات البعيدة مبكرة، كما كانت مواعيده مع الإبداع والتفرد والتجديد مبكرة أيضا، وكان نزوعه القومي للمقاومة والاشتباك مع الرغبة في التغيير أصيلا ومبكرا، كما هو رحيله المبكر".

وأكد الطويسي أن أمجد ناصر "كان مغايرا ومختلفا في مسيرته الإبداعية التي تكللت بالابتكار والتجديد في قصيدة النثر علىٰ مستوى الشكل والمضمون، فاجترح البناء الدرامي والمشهدية، والعودة إلىٰ أماكن الطفولة علىٰ حافة الصحراء، حيث الإبل البيضاء وأمطار تشرين والجدات العتيقات".

وأشار الطويسي إلىٰ أن وزارة الثقافة عملت علىٰ إصدار مجموعة من أعماله الشعرية، وهذا العام نال قبل وفاته -عن جدارة واستحقاق- جائزة الدولة التقديرية، كما أعادت الوزارة هذا العام طباعة ديوانيه "حياة كسرد متقطع" و"حياة متوسطية.. وعندما تكون في بلاد ماركيز"، وتم اختياره الشخصية الثقافية لمعرض عمان الدولي للكتاب في دورته الأخيرة لعام 2019، حيث أُقيمت علىٰ هامش المعرض ندوة نقدية مهمة تناولت مجمل أعماله النثرية والشعرية.

وألقىٰ الشاعر نوري الجراح، رفيق درب أمجد ناصر، كلمة حميمة ابتدأها قائلا "الشعراء لا يموتون، الشعراء زوار يأتون من المستقبل، وعندما نتفقدهم ولا نجدهم بيننا نكتشف أنهم قفلوا عائدين من حيث أتوا. كنت أريد أن أقول هذا لأمجد، وأنا أكشف الغطاء عن وجهه، لكنه كان نائما، ونومه منشغل بأنوار تتلألأ في بهو قصيدته".

واستذكر الجراح علاقته بالراحل قائلا "منذ أن خرجنا أحياء من حصار بيروت صيف 1982، وقد كنا لاجئين عربيين يقطنان خيمة فلسطينية، وحتىٰ لحظة العناق الأخيرة تلك في أوسترلي، كلّ ما بقي لنا هو ضوء الأمنية التي رافقت صداقتنا المترعة بالأسىٰ والفرح والأمنيات، بالغضب والرضىٰ، بالحب والفقد، بالحروب التي التهمت الأصدقاء والأعداء، وبالثورة علىٰ كل ما بدا ليفاعتنا باطلا. صرفنا الوقت ننتصر للشعر بوصفه الحرية، وللإنسان بوصفه القصيدة، وصرفناه بالشغف -أولا وأخيرا- بالكلمات، الكلمات، الكلمات؛ سلاح الشاعر في العالم. أمجد كان رفيقَ تلك الرحلة من بيروت إلىٰ نيقوسيا إلىٰ لندن، وصداقتنا في أطوارها المختلفة كانت صداقة المغامرة في اللغة والمنفىٰ الاختياري، وقد اقتسمنا معا، صحبة شعراء آخرين، رغيف الخبز وساحة المعركة.

وختم الجراح كلمته قائلا "كانت فكرتنا الفلسطينية الوتدَ الذي رفع خيمة القصيدة وخيمة المنفىٰ للهاربين من مدن الاستبداد العربي. وكنا في تلك الخيمة شقائق نعمان الشام بأعمار قصيرة وأبصار تطارد الأنجم".

وجائت كلمة الناقد فخري صالح بعنوان "أمجد ناصر: يليق به المديح" قال فيها "لا أريد أن أرثيه، فالرثاء لا يليق بالصديق الراحل أمجد ناصر (يحيىٰ النعيمي)، يليق به المديح لخصاله العديدة، للصداقة التي ربطت بيننا، وستبقىٰ، رغم رحيله، ميراثا يتغلّب علىٰ النسيان، ويمكننا، نحن أصدقاءَه وقراءَه وعارفي منجزه الحي الباقي، من التعرُّف عليه أكثر في ضوء الغياب الساطع الذي يجعل الأشياء واضحة، كما لم تكن من قبل، وينبّهنا إلىٰ تميُّز ما أنجزه أمجد وعلوّ كعبه في الشعر والنثر، كما في الموقف الإنساني والثبات علىٰ هذا الموقف الذي يؤمن بالناس وسعيهم الدائب إلىٰ النضال من أجل حريتهم وكرامتهم الإنسانية.

وأضاف الناقد صالح "لقد زاوج أمجد بين هذا الموقف الإنساني وتجديد دم الثقافة العربية، وتطوير الحداثة الشعرية. وهو رغم مشوار العمر القصير الذي خطاه علىٰ هذه الأرض، ترك ميراثا من الشعر والنثر، من القصائد والروايات وكتب الرحلة، من المقالات السجاليَّة التي جعلته واحدا من بين أفضل كتاب المقالة العرب الذين تنوس كتابتهم بين السياسة والثقافة".

وتحدث مدير مركز القدس للدراسات عريب الرنتاوي عن علاقته بالراحل مشيرا إلىٰ أنه لم ينتظر يوما، ولم يخطر له علىٰ بال أن يقف هذا الموقف، فلطالما ظنُّ أن أمجدَ باق في حياته وعوالمه إلىٰ أن يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وقال الرنتاوي "حين رأيته يُوارى الثرى في موطن الأهل والأجداد، أحسست أن جزءا مني ينسلّ إلىٰ تلك الحفرةِ الضيقة.. ذهب أمجد وذهبت معه انتظارات كثيرة ومواعيد لم نضربها، لنواصل ما اعتدنا علىٰ فعله، جلسات تصل الليل بالنهار، يختلط فيها الهزل بالجد، والرأي بالنميمة التي تواطأنا علىٰ وصفها بـ"المنعشة".

حين التقيْتُه لأول مرة، والبداية كانت من مقهىٰ الأردنِ بوسطِ البلد، وكان ذلك في منتصف سبعينات القرن الماضي، جمعتنا حينها الرغبة الجامحة بالتمرد علىٰ الأسرة والعشيرة والمجتمع والسلطة.

> أمجد ناصر كان مغايرا ومختلفا في مسيرته الإبداعية التي تكللت بالابتكار والتجديد في قصيدة النثر

وعن تجربة ناصر السياسية، كشف الرنتاوي أنه لم يكن شغوفا بـ"السياسة اليومية" بقدر ما كان معنيا بالسياسة بما هي قيم عليا ومثل سامية ومبادئ لا تعرف التجزئة والقسمة.

وقدم الشاعران سعدالدين شاهين، وزليخة أبوريشه، شهادتين في تجربة أمجد ناصر ألقيا من خلالهما الضوء علىٰ قدرته في تكوين الأصدقاء، وخلق العلاقات الإنسانية الحميمة مع الشعراء العرب وفي العالم.

وتناول الشاعران قصيدة أمجد ناصر وتأثيرها في المشهد الشعري العربي، وقدرته علىٰ التجريب والتطوير في سياقات الحداثة وما بعدها، مؤكدين أن ناصر زاوج بين الموقف الإنساني وتجديد دم الثقافة العربية وتطوير الحداثة الشعرية.

وختم الشاعر زهير أبوشايب حفل التأبين بقراءة قصائد مختارة من شعر الراحل أمجد ناصر.

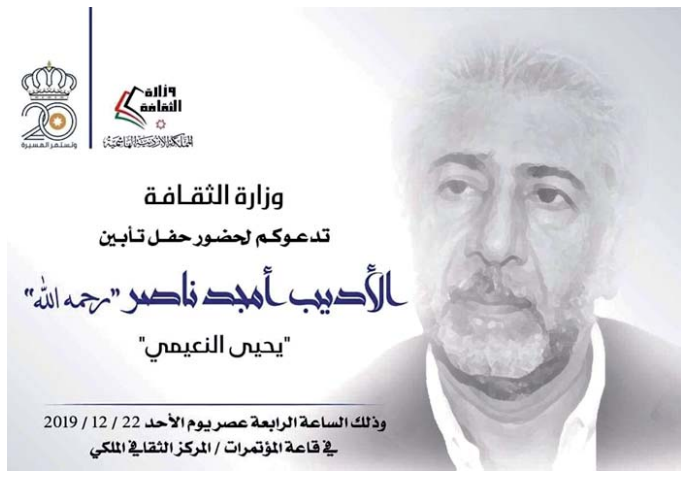

إطلالة على أمجد ناصر شاعرا وإنسانا